

SYNTACTIC DEVIATION IN ARABIC AND ITS EFFECT ON MEANING CONSTRUCTION: A GRAMMATICAL-SEMANTIC APPROACH

Dhifaf Abduljalil Abdulwahd

University of Baghdad/ College of Fine Arts

dhefahalhitidhefahalhiti@gmail.com

Abstract

This study aims to uncover the phenomenon of syntactic deviation in Arabic and its impact on meaning construction, through a syntactic-semantic approach that combines analyzing the syntactic structure and elucidating its semantic and pragmatic functions in Arabic texts. The study is based on the hypothesis that syntactic deviation is not considered a departure from grammatical rules, but rather represents a deliberate use of the possibilities of the syntactic system to direct meaning and highlight its focus within discourse. The study adopted the descriptive-analytical method based on tracing patterns of syntactic deviation in Quranic, poetic, and prose texts, and then analyzing them in light of grammatical rules and the requirements of the pragmatic context.

Keywords: Syntactic modification, grammar and semantics, meaning construction, fronting and postponement, pragmatic analysis.

العدول التركيبي في العربية وأثره في بناء المعنى: مقارنة نحوية دلالية

م.م. ضفاف عبد الجليل عبد الواحد

جامعة بغداد/ كلية الفنون الجميلة

dhefahalhitidhefahalhiti@gmail.com

المخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ظاهرة العدول التركيبي في العربية وأثرها في بناء المعنى، من خلال مقارنة نحوية دلالية تجمع بين تحليل البنية التركيبية واستجلاء وظائفها الدلالية والتداولية في النصوص العربية. وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن العدول التركيبي لا يُعدّ خروجًا عن القاعدة النحوية، بل يمثل توظيفًا مقصودًا لإمكانات النظام التركيبي بهدف توجيه المعنى وإبراز بؤرته داخل الخطاب. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي القائم على تتبع أنماط العدول التركيبي في النصوص القرآنية والشعرية والنثرية، ثم تحليلها في ضوء القواعد النحوية ومقتضيات السياق التداولي.

وقد بينت الدراسة أن العدول التركيبي يتجلى في صور متعددة، أبرزها: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتوسع في الإسناد، والتحويل بين الجملة الاسمية والفعلية، إضافة إلى العدول في التراكيب الإضافية والظرفية. وأظهرت النتائج أن هذه التحولات التركيبية تسهم في توليد معاني جديدة، مثل الحصر والتخصيص والتوكيد، كما تؤدي دوراً مهماً في تحقيق التركيز الدلالي والاقتصاد اللغوي وإثراء إمكانات التأويل داخل النص العربي. كما كشفت الدراسة عن تكامل عميق بين النحو والدلالة، حيث يتحدد المعنى من خلال العلاقات التركيبية بين عناصر الجملة، لا من المفردات منفردة. وتوصلت الدراسة إلى أن العدول التركيبي يمثل استراتيجية لغوية واعية تُسخر فيها الإمكانيات النحوية لتحقيق وظائف دلالية وبلاغية دقيقة تتحدد في ضوء سياق المقام ومقاصد الخطاب. وتبرز أهمية هذه الدراسة في إسهامها في تعميق الفهم العلمي للعلاقة بين البنية التركيبية والدلالة في العربية، وتأكيداً لضرورة اعتماد مقاربة تكاملية تجمع بين التحليل النحوي والدلالي والتداولي في تفسير الظواهر اللغوية.

الكلمات المفتاحية: العدول التركيبي، النحو والدلالة، بناء المعنى، التقديم والتأخير، التحليل التداولي.

المقدمة :

تعدُّ العربية من اللغات التي يتأسس نظامها الدلالي على شبكة معقدة من العلاقات التركيبية التي لا تقف عند حدود البنية الشكلية، بل تتجاوزها لتؤدي دوراً جوهرياً في توليد المعنى وتوجيهه. فالتركيب في العربية ليس مجرد انتظام نحوي للعناصر اللغوية، بل هو آلية فاعلة في بناء الدلالة وإعادة تشكيلها وفق مقتضيات السياق والمقام، الأمر الذي يجعل دراسة الظواهر التركيبية مدخلاً أساساً لفهم البنية الدلالية للنص العربي (الجرجاني، 1992، ص 48).

ويبرز ضمن هذه الظواهر ما يُعرف بالعدول التركيبي، الذي يُقصد به الانحراف المقصود عن البنية التركيبية المألوفة أو الرتبة النحوية الأصلية للجملة، بما يؤدي إلى إحداث أثر دلالي خاص يتجاوز الدلالة المعجمية المباشرة. ولا يُعدُّ هذا العدول خروجاً على النظام النحوي، بل هو توظيف مقصود للإمكانيات التي يتيحها هذا النظام، إذ تسمح العربية بتعدد صور التعبير عن المعنى الواحد من خلال آليات نحوية متنوعة كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتحويل بين الجمل الاسمية والفعلية، وكلها تؤدي وظائف دلالية تتصل بالتوكيد والتخصيص والتركيز المعنوي (ابن هشام، 1985، ج 1، ص 32). وقد أدرك علماء العربية منذ وقت مبكر العلاقة الوثيقة بين النظم التركيبي وبناء المعنى، فجعل عبد القاهر الجرجاني أساس البلاغة قائماً على العلاقات التركيبية بين الألفاظ، مؤكداً أن المعنى لا يُستمد من المفردات مفردة، بل من طريقة تأليفها وانتظامها في السياق، وأن تغيير مواقع الكلمات داخل الجملة يؤدي إلى تغيير دلالي مقصود يحقق أغراضاً بلاغية مخصوصة (الجرجاني، 1992، ص 53). ومن هنا يتضح أن العدول التركيبي يمثل امتداداً تطبيقياً لمفهوم النظم، بوصفه إعادة توزيع للعناصر اللغوية بما يخدم مقصدًا دلاليًا معيّنًا.

كما أن الدرس النحوي التراثي قد أشار إلى أثر التحولات التركيبية في توجيه المعنى، إذ تناول سيبويه قضايا التقديم والتأخير والحذف بوصفها ظواهر تؤثر في قوة المعنى ومركز الاهتمام داخل الجملة، مما يدل على أن الترتيب النحوي ليس أمراً شكلياً، بل هو عنصر فاعل في إنتاج الدلالة

(سيبويه، 1988، ج1، ص 25). ويؤكد ذلك أيضاً ما ذهب إليه ابن جني من أن العدول عن الأصل التركيبي قد يكون لأغراض معنوية وبلاغية تتعلق بالمقام والسياق، وليس مجرد مخالفة للقياس (ابن جني، 1999، ج2، ص 392).

وفي ضوء الدراسات اللسانية الحديثة، تزداد أهمية الربط بين البنية التركيبية والمعنى، إذ تؤكد الاتجاهات التوليدية والوظيفية أن التغيير في البنية السطحية يقود غالباً إلى تغيير في البنية الدلالية، وأن التحولات التركيبية تعد وسيلة لإبراز بؤرة المعنى أو إعادة توجيه التأويل داخل الخطاب (Halliday,1994,37)؛ (Chomsky,1965,136) وبهذا يمكن النظر إلى العدول التركيبي بوصفه إستراتيجية لغوية واعية تسهم في إعادة توزيع المعلومات داخل الجملة بما يحقق وظائف تداولية ودلالية متعددة.

وتتبع مشكلة هذا البحث من ملاحظة أن كثيراً من الدراسات النحوية وقفت عند حدود الوصف الشكلي للبنى التركيبية دون تعميق النظر في أثر العدول في إنتاج المعنى وتوجيهه داخل النصوص العربية. كما أن بعض الدراسات الدلالية الحديثة لم تول اهتماماً كافياً ببيان التكامل بين النظام النحوي والبعد الدلالي في تفسير ظاهرة العدول التركيبي، مما يستدعي معالجة علمية تجمع بين المقاربة النحوية والتحليل الدلالي في إطار منهجي متكامل.

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن مفهوم العدول التركيبي في العربية وحدوده الاصطلاحية، وتحديد أنماطه في البنية النحوية، وبيان أثره في بناء المعنى داخل السياق اللغوي، فضلاً عن إبراز التكامل بين التحليل النحوي والتحليل الدلالي في تفسير هذه الظاهرة. كما يسعى إلى تطبيق هذه الرؤية على نماذج من النصوص العربية القرآنية والشعرية والنثرية، بوصفها ميداناً غنياً لتجلي العدول التركيبي بوظائفه الدلالية المتنوعة.

أما منهج البحث فيقوم على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء الشواهد اللغوية، وتصنيف أنماط العدول التركيبي، ثم تحليلها تحليلاً نحوياً دلالياً يبرز العلاقة بين البنية التركيبية والمعنى المتولد عنها في ضوء السياق التداولي للنص. ويستند هذا المنهج إلى التكامل بين المعطيات النحوية التراثية والرؤى اللسانية الحديثة، بما يحقق قراءة علمية متوازنة للظاهرة.

وتحدد حدود البحث في دراسة العدول التركيبي في النصوص العربية الفصيحة، مع التركيز على الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية، بوصفها تمثل أعلى مستويات النضج اللغوي والبلاغي، دون التوسع في الاستعمالات اللهجية أو العامية. كما يقتصر البحث على تحليل العدول في مستواه التركيبي وأثره في بناء المعنى، دون الخوض في الجوانب الصوتية أو الصرفية إلا بقدر ما يخدم التحليل النحوي الدلالي.

وينتظم البحث في خمسة مباحث مترابطة؛ يتناول الأول الإطار المفاهيمي للعدول التركيبي، ويعرض الثاني أنماطه في العربية، ويبحث الثالث أثره الدلالي في بناء المعنى، بينما يخصص الرابع للمقاربة النحوية الدلالية للعدول، ويقدم الخامس نماذج تطبيقية تحليلية تكشف عن تجليات هذه الظاهرة في النصوص العربية. وتختتم الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات وآفاق البحث المستقبلية. وبذلك يسعى هذا البحث إلى الإسهام في تعميق الفهم العلمي لظاهرة العدول التركيبي في العربية، وإبراز دورها المحوري في تشكيل المعاني داخل الخطاب، انطلاقاً من رؤية ترى أن النحو العربي ليس

نظامًا شكليًا جامدًا، بل بنية ديناميكية تتفاعل مع السياق والدلالة لإنتاج خطاب غني بالإيحاءات والتوجيهات المعنوية المتجددة.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للعدول التركيبي

المطلب الأول: مفهوم العدول في الدرس اللغوي

يمثل مفهوم العدول أحد المفاهيم المركزية في الدرس اللغوي العربي، لما ينطوي عليه من أبعاد نحوية ودلالية وبلاغية تتصل بطبيعة النظام اللغوي العربي ومرونته في التعبير عن المعاني. وقد حظي هذا المفهوم باهتمام واسع لدى علماء العربية قديمًا وحديثًا، بوصفه ظاهرة لغوية تكشف عن قدرة المتكلم على توظيف الإمكانيات التركيبية للغة بما يحقق أغراضًا معنوية وجمالية تتجاوز حدود الاستعمال المعياري المباشر.

أولاً: العدول لغةً واصطلاحًا

يرجع مفهوم العدول في أصله اللغوي إلى معنى الميل والانحراف عن الشيء. فقد جاء في معاجم اللغة أن مادة (ع د ل) تدل على التحول والميل عن الطريق، فيقال: عدل عن الشيء أي مال عنه وتركه إلى غيره (ابن منظور، 1994، ج 11، ص 430). ومن هذا المعنى اللغوي انبثق المفهوم الاصطلاحي للعدول في الدرس اللغوي، إذ يدل على الخروج المقصود عن الأصل أو النمط المألوف في البنية اللغوية.

أما في الاصطلاح اللغوي، فيُقصد بالعدول انتقال المتكلم من صيغة أصلية متوقعة إلى صيغة أخرى مغايرة لها في التركيب أو الترتيب أو الأسلوب، لتحقيق غرض دلالي أو بلاغي مخصوص. ويُفهم من هذا التعريف أن العدول ليس خطأً لغويًا ولا خروجًا عشوائيًا عن القاعدة، بل هو توظيف واعٍ للإمكانيات التي يتيحها النظام اللغوي لتحقيق دلالة أعمق أو أثر أسلوبية معين (عبد المطلب، 1998، ص 72). وقد ربط البلاغيون بين العدول وفكرة الاختيار الأسلوبية، حيث يرى بعض الدارسين أن العدول يمثل انتقالًا مقصودًا من التعبير المألوف إلى تعبير غير متوقع، بما يثير انتباه المتلقي ويؤدي إلى تكثيف المعنى أو تعميقه (حسان، 2006، ص 115). ومن ثم فإن العدول في جوهره ظاهرة لغوية تقوم على المفارقة بين الأصل المتوقع والاستعمال الفعلي داخل السياق.

ثانيًا: الفرق بين العدول والانزياح

كثيرًا ما يختلط مفهوم العدول بمفهوم الانزياح في الدراسات اللغوية الحديثة، غير أن بينهما فروقًا دقيقة ينبغي تبيينها. فالانزياح يُستعمل غالبًا في الدرس الأسلوبية الحديث للدلالة على الابتعاد عن اللغة المعيارية أو المألوفة نحو استعمال فني أو إبداعي يهدف إلى تحقيق تأثير جمالي أو دلالي خاص (Leech, 1969, p. 56). وهو مفهوم يرتبط بالتحليل الأسلوبية للنصوص الأدبية، ويُنظر إليه بوصفه سمة من سمات اللغة الشعرية خاصة.

أما العدول في التراث اللغوي العربي، فهو أوسع دلالة من الانزياح، إذ يشمل كل انتقال مقصود عن الأصل التركيبي أو الدلالي أو الأسلوبية، سواء أكان ذلك في الشعر أم في النثر أم في النصوص القرآنية. فالعدول لا يقتصر على الجانب الجمالي، بل يتصل أيضًا بوظائف نحوية ودلالية تتعلق بتوجيه المعنى وتحديد بؤرته داخل الجملة (مفتاح، 1985، ص 93).

ثمّ يمكن القول إن العلاقة بين المصطلحين علاقة عموم وخصوص؛ فالعدول مصطلح تراثي شامل يتناول مختلف صور الخروج المقصود عن الأصل اللغوي، في حين أن الانزياح مصطلح حديث يرکز أساساً على البعد الأسلوبي والجمالي في الخطاب الأدبي. وعلى الرغم من هذا التمييز، فإن كليهما يشتركان في كونهما يقومان على مبدأ المفارقة بين البنية المتوقعة والبنية المستعملة، وما يترتب على ذلك من آثار دلالية وتداولية (عبد السلام المسدي، 1994، ص 141).

ثالثاً: العدول في التراث النحوي والبلاغي

لم يكن مفهوم العدول غائباً عن التراث النحوي والبلاغي العربي، وإن لم يُصغ بهذا المصطلح في جميع المواضع، بل تجلّى في قضايا متعددة تناولها النحاة والبلاغيون تحت عناوين مثل: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والعدول عن الأصل، وتنوع الأساليب تبعاً للمقام.

فقد أشار سيبويه إلى ظاهرة التقديم والتأخير بوصفها من الوسائل التي تؤثر في المعنى وتبرز بعض عناصر الجملة على حساب غيرها، مما يدل على وعي مبكر بأثر الترتيب التركيبي في توجيه الدلالة (سيبويه، 1988، ج 1، ص 24). كما تناول ابن هشام مسائل الحذف والتقدير، مبيّناً أن حذف بعض عناصر الجملة قد يكون لأغراض معنوية وبلاغية، لا لمجرد الاختصار اللفظي، وهو ما يعكس حضور فكرة العدول ضمناً في التحليل النحوي (ابن هشام، 1985، ج 1، ص 37).

أما في الدرس البلاغي، فقد احتل العدول مكانة بارزة في إطار نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، الذي عدّ اختلاف ترتيب الكلمات وتغيّر مواقعها داخل الجملة عاملاً حاسماً في اختلاف المعنى وتنوع الدلالات، مؤكداً أن جمال الكلام وقوته يكمنان في طريقة نظمه لا في مفرداته منفردة (الجرجاني، 1992، ص 52). ويُفهم من هذا الطرح أن العدول التركيبي ليس مجرد ظاهرة شكلية، بل هو وسيلة لإعادة بناء العلاقات بين الألفاظ بما يخدم المقاصد الدلالية والبلاغية للنص.

كما نجد عند ابن جني إشارات واضحة إلى مفهوم العدول، حين تحدث عن العدول عن الأصل اللغوي لأغراض معنوية، ورأى أن هذا العدول يدل على طواعية اللغة وقدرتها على التكيف مع مقتضيات السياق (ابن جني، 1999، ج 2، ص 390). وهذا يدل على أن التراث اللغوي العربي كان واعياً بوجود انحرافات مقصودة عن الأصل التركيبي، وأن هذه الانحرافات ليست خروجاً عن القاعدة، بل استعملاً مشروعاً تدعمه الذائقة اللغوية والسياق الدلالي.

وبناءً على ما تقدم، يتضح أن مفهوم العدول في الدرس اللغوي العربي يمثل إطاراً نظرياً واسعاً يجمع بين الأبعاد النحوية والبلاغية والدلالية، وأنه يشكّل الأساس المفاهيمي لدراسة العدول التركيبي بوصفه ظاهرة لغوية تؤدي دوراً محورياً في بناء المعنى داخل النص العربي، وهو ما يمهد للانتقال إلى دراسة أنماطه التركيبية وأثرها الدلالي في المباحث اللاحقة.

المطلب الثاني: العدول التركيبي في العربية

يُعدّ العدول التركيبي من أبرز الظواهر التي تكشف عن مرونة النظام النحوي العربي وقدرته على استيعاب تحولات البنية اللغوية دون الإخلال بقواعدها العامة، إذ يقوم هذا العدول على إعادة ترتيب مكونات الجملة أو التحول في بنيتها بما يحقق مقاصد دلالية وبلاغية تتجاوز الدلالة المباشرة. وقد حظيت هذه الظاهرة بعناية النحاة والبلاغيين بوصفها وسيلة فاعلة في توجيه المعنى وإبراز بؤرته داخل الخطاب، الأمر الذي يجعل دراستها مدخلاً ضرورياً لفهم العلاقة التفاعلية بين الشكل التركيبي والدلالة.

أولاً: تعريف العدول التركيبي

يُقصد بالعدول التركيبي انتقال المتكلم من البنية النحوية الأصلية أو الرتبة المعيارية المتوقعة إلى بنية أخرى مغايرة، مع بقاء المعنى العام محفوظاً، غير أن هذا الانتقال يؤدي إلى توجيه دلالي خاص أو إبراز معنوي مقصود. فالعدول هنا لا يعني مخالفة القاعدة النحوية، بل هو استثمار للإمكانات التي يتيحها النظام التركيبي للغة العربية في التعبير عن المعاني بأساليب متنوعة (ابن هشام، 1985، ج1، 40).

ومن هذا المنطلق يمكن النظر إلى العدول التركيبي بوصفه آلية لغوية تقوم على إعادة توزيع الوظائف النحوية داخل الجملة، سواء أكان ذلك من خلال تغيير الرتبة، أم حذف بعض العناصر، أم استبدال بنية تركيبية بأخرى، بما يؤدي إلى إعادة تشكيل العلاقات الدلالية بين المكونات. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن اختلاف مواقع الألفاظ في التركيب يؤدي إلى اختلاف المعاني، وأن تغيير النظم يفضي بالضرورة إلى تغيير في الدلالة، وهو ما يمثل جوهر فكرة العدول التركيبي (الجرجاني، 1992، ص 55).

كما يفهم من التحليل اللساني الحديث أن العدول التركيبي يمثل نوعاً من التحويل البنيوي الذي ينتقل فيه المتكلم من بنية عميقة إلى أخرى سطحية مختلفة، لتحقيق غرض دلالي أو تداولي محدد، وهو ما ينسجم مع التصورات التي ترى أن البنية التركيبية ليست ثابتة، بل قابلة للتحويل تبعاً لوظيفة الخطاب وسياقه. (Chomsky, 1965, p. 148)

ثانياً: أنواعه في البنية النحوية

يتجلى العدول التركيبي في العربية في صور متعددة ترتبط بالبنية النحوية للجملة، ويمكن تصنيف أبرز أنواعه في المحاور الآتية:

1. **العدول في الرتبة النحوية (التقديم والتأخير):** يُعدّ تغيير ترتيب عناصر الجملة من أبرز صور العدول التركيبي، إذ يُقدّم ما حقه التأخير أو يُؤخّر ما حقه التقديم لأغراض دلالية كالتخصيص أو التوكيد أو الاهتمام. وقد أشار سيبويه إلى أن التقديم قد يكون للعناية بالمتقدّم أو لإبرازه في بؤرة الاهتمام داخل الجملة (سيبويه، 1988، ج1، ص 26).
2. **العدول بالحذف والذكر:** يتمثل في حذف عنصر من عناصر الجملة مع بقاء دلالاته مفهومة من السياق، أو في ذكر عنصر كان مقتضى الأصل حذفه. وهذا النوع يؤدي إلى تكثيف المعنى وإشراك المتلقي في استنباط الدلالة، وهو ما يجعله وسيلة دلالية فاعلة في الاقتصاد اللغوي (ابن جني، 1999، ج2، ص 401).
3. **العدول بين الجملة الاسمية والفعلية:** قد يعدل المتكلم عن الجملة الفعلية إلى الاسمية أو العكس، تبعاً للمقصد الدلالي؛ فالجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار، في حين تفيد الجملة الفعلية التجدد والحدوث، ومن ثمّ فإن اختيار أحد النمطين يعدل بالبنية التركيبية لتحقيق دلالة مخصوصة (حسان، 2006، ص 122).
4. **العدول في التراكيب الإسنادية والتوسّع فيها:** يظهر هذا النوع في توسيع بنية الإسناد بإضافة قيود وظروف أو في تقليصها بحذف بعض مكوناتها، بما يؤدي إلى إعادة توجيه المعنى وتحديد علاقاتها داخل الجملة.

وتكشف هذه الأنواع عن أن العدول التركيبي ليس ظاهرة واحدة، بل هو مجموعة من التحولات التي تصيب البنية النحوية وتؤدي وظائف دلالية متعددة، وهو ما يؤكد طواعية النظام التركيبي العربي وقدرته على التكيف مع مقتضيات السياق.

ثالثاً: موقعه بين النحو والدلالة

يقع العدول التركيبي في منطقة تداخل واضحة بين الدرس النحوي والدرس الدلالي، إذ لا يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً في ضوء القواعد النحوية وحدها، كما لا يمكن فهم أثره دون تحليل دلالي يأخذ بنظر الاعتبار سياق الاستعمال ومقاصد المتكلم. ومن ثم فإن العدول التركيبي يمثل نقطة التقاء بين الشكل اللغوي والمعنى، حيث تتحول البنية النحوية إلى أداة فاعلة في توجيه الدلالة. وقد أكدت نظرية النظم أن المعنى لا يفهم من المفردات منفردة، بل من العلاقات التي تنشأ بينها في التركيب، وأن تغيير هذه العلاقات يؤدي إلى تغيير في الدلالة، مما يدل على أن النحو والدلالة عنصران متكاملان لا ينفصل أحدهما عن الآخر (الجرجاني، 1992، ص 60). كما يرى بعض الدارسين المحدثين أن البنية التركيبية تمثل الإطار الذي تُبنى فيه الدلالة، وأن أي تحول في هذا الإطار يقود بالضرورة إلى تحول دلالي مصاحب. (Halliday, 1994, p. 45)

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن العدول التركيبي يمثل جسراً يصل بين المستويين النحوي والدلالي، إذ يكشف من جهة عن مرونة النظام النحوي في استيعاب التحولات الأسلوبية، ويكشف من جهة أخرى عن دور هذه التحولات في توجيه المعنى وإغنائه. ومن هنا تبرز أهمية دراسته في إطار مقارنة نحوية دلالية تكاملية تُعنى بتحليل البنية التركيبية في ضوء وظيفتها الدلالية داخل النص العربي.

المطلب الثالث: العلاقة بين التركيب والمعنى

تمثل العلاقة بين التركيب والمعنى محوراً أساساً في الدراسات اللغوية العربية، إذ يقوم بناء الدلالة في العربية على أساس انتظام العناصر داخل البنية التركيبية للجملة، لا على المفردات منفردة. فالتركيب هو الإطار الذي تتحدد من خلاله العلاقات الدلالية بين الكلمات، ومن ثم فإن أيّ تغيير في هذا الإطار يؤدي بالضرورة إلى تغيير في المعنى أو في درجة بروزه وأهميته داخل الخطاب. وقد أدرك علماء العربية هذه الحقيقة مبكراً، فربطوا بين النظم التركيبي والدلالة، وعدّوا اختلاف التراكيب سبباً رئيساً في اختلاف المعاني وتنوعها.

أولاً: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

تعدّ نظرية النظم التي صاغها عبد القاهر الجرجاني من أهم النظريات التي أرست الأساس العلمي لفهم العلاقة بين التركيب والمعنى في العربية. فقد قرر الجرجاني أن المعنى لا يتولد من الألفاظ مفردة، بل من طريقة نظمها وترتيبها داخل الجملة، وأن جمال الكلام وقوته إنما يكمنان في العلاقات التركيبية التي تربط بين أجزائه، لا في المفردات ذاتها (الجرجاني، 1992، ص 45).

ويرى الجرجاني أن النظم هو توحي معاني النحو في ترتيب الألفاظ، أي مراعاة العلاقات النحوية التي تربط بين المسند والمسند إليه، والمتعلقات، وسائر عناصر الجملة، وأن تغيير مواقع الكلمات داخل التركيب يؤدي إلى تغيير المعنى تبعاً لتغيير هذه العلاقات (الجرجاني، 1992، ص 50). وبذلك جعل الجرجاني النحو أساساً للدلالة، وعدّ الترتيب التركيبي العامل الحاسم في توجيه المعنى وتحديد مقاصده البلاغية.

ومن هنا يتضح أن نظرية النظم تمثل الأساس النظري الذي يمكن في ضوءه تفسير ظاهرة العدول التركيبي، إذ إن العدول لا يعدو أن يكون إعادة تنظيم للعلاقات التركيبية داخل الجملة بما يحقق مقصدًا دلاليًا خاصًا. فالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتحويل بين الأبنية، كلها مظاهر لنظم جديد يغيّر النظم المألوف، ويؤدي إلى دلالة مغايرة تبعًا لذلك.

ثانيًا: أثر الترتيب النحوي في تشكيل الدلالة

يؤدي الترتيب النحوي دورًا حاسمًا في تشكيل الدلالة داخل الجملة العربية، إذ لا يقتصر دوره على تنظيم العناصر اللغوية، بل يتجاوز ذلك إلى تحديد بؤرة المعنى وإبراز ما يراد الاهتمام به في الخطاب. فحين يُقدّم عنصر من عناصر الجملة على غير رتبته الأصلية، فإن ذلك يشير إلى عناية خاصة به أو إلى تخصيصه بدلالة معينة، وهو ما أشار إليه النحاة والبلاغيون عند حديثهم عن التقديم والتأخير (سيبويه، 1988، ج1، ص 28).

كما أن الحذف يُعدّ من الوسائل التركيبية التي تسهم في توجيه المعنى، إذ يؤدي حذف بعض عناصر الجملة إلى إحداث فراغ دلالي يُستنبط من السياق، مما يمنح النص كثافة دلالية ويجعل المتلقي شريكًا في استكمال المعنى (ابن جني، 1999، ج2، ص 403). وعلى هذا الأساس، فإن العدول عن الرتبة الأصلية أو عن الذكر الصريح لبعض العناصر يمثل آلية لغوية تهدف إلى إعادة توزيع الأهمية الدلالية بين مكونات الجملة.

ولا يقتصر أثر الترتيب النحوي على إبراز عنصر معين، بل يتعداه إلى تغيير طبيعة العلاقة بين المسند والمسند إليه، أو بين الفعل وفاعله ومفعوله، مما يؤدي إلى اختلاف في زاوية النظر إلى الحدث أو الفكرة المعبر عنها. ومن ثمّ فإن الترتيب التركيبي يُعدّ عنصرًا جوهريًا في توجيه الدلالة، وليس مجرد ترتيب شكلي لا أثر له في المعنى.

ثالثًا: البنية العميقة والبنية السطحية في العربية

أسهمت اللسانيات الحديثة في تعميق فهم العلاقة بين التركيب والمعنى من خلال التمييز بين البنية العميقة والبنية السطحية للجملة. فالبنية العميقة تمثل المستوى الدلالي المجرد الذي يتضمن العلاقات الأساسية بين عناصر المعنى، في حين تمثل البنية السطحية الصورة التركيبية الظاهرة التي تتحقق في الكلام الفعلي. (Chomsky, 1965, p. 135)

وبناءً على هذا التصور، يمكن القول إن العدول التركيبي في العربية يمثل انتقالًا من بنية عميقة ثابتة إلى بنية سطحية متحوّلة تبعًا للمقاصد الدلالية والسياقية. فالمعنى العام قد يبقى واحدًا في مستواه العميق، لكن تغيّر البنية السطحية عبر التقديم أو الحذف أو التحويل يؤدي إلى إبراز جوانب معينة من هذا المعنى أو توجيهه في اتجاه مخصوص. وهذا ما يتفق مع الرؤية الوظيفية التي ترى أن البنية التركيبية تُسخر لخدمة الوظيفة الدلالية والتواصلية للخطاب. (Halliday, 1994, p. 39)

ومن ثمّ، فإن العلاقة بين التركيب والمعنى في العربية علاقة تلازم وتكامل، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ فالمعنى يتشكل داخل الإطار التركيبي، والتركيب يكتسب قيمته من الدلالة التي يؤديها في السياق. وتأسيسًا على ذلك، فإن دراسة العدول التركيبي تقتضي النظر إليه بوصفه تحوّلًا في البنية السطحية يستهدف إعادة توجيه البنية الدلالية، وهو ما يجعل هذه الظاهرة مجالًا خصبًا للمقاربة النحوية الدلالية التي تسعى هذه الدراسة إلى ترسيخها.

المبحث الثاني: أنماط العدول التركيبي في العربية
المطلب الأول: العدول في الرتبة النحوية
يمثل العدول في الرتبة النحوية أحد أبرز أنماط العدول التركيبي في العربية، إذ يقوم على إعادة ترتيب مكونات الجملة على نحو يخالف رتبها الأصلية المتوقعة، مع بقاء سلامة التركيب النحوي. ويكشف هذا النوع من العدول عن مرونة النظام التركيبي العربي وقدرته على توظيف الترتيب لتحقيق مقاصد دلالية وبلاغية متنوعة، بحيث يتحول الترتيب من مجرد تنظيم شكلي إلى وسيلة فاعلة في توجيه المعنى وإبراز عناصره داخل الخطاب.

أولاً: التقديم والتأخير

يُعدّ التقديم والتأخير الصورة الأبرز للعدول في الرتبة النحوية، إذ يتمثل في تقديم عنصر من عناصر الجملة على غير رتبته الأصلية أو تأخيره عنها لغرض دلالي أو بلاغي مقصود. وقد أشار النحاة إلى أن الأصل في الجملة العربية هو ترتيب خاص يراعي العلاقات الإسنادية بين المكونات، غير أن هذا الترتيب قد يُعدّل عنه لتحقيق غايات معنوية كالتخصيص أو التوكيد أو العناية بالمتقدم (سيبويه، 1988، ج1، ص 30).

وقد أولى البلاغيون هذه الظاهرة عناية خاصة، فبيّن عبد القاهر الجرجاني أن التقديم ليس مجرد تغيير مكاني للألفاظ، بل هو إعادة تنظيم للعلاقات المعنوية بينها، وأن المتكلم حين يقدّم لفظاً إنما يقصد إبراز معناه وجعله في بؤرة الاهتمام داخل السياق (الجرجاني، 1992، ص 70). ومن ثم فإن التقديم والتأخير لا يفهمان على أنهما انحراف عن القاعدة، بل هما استعمالان مشروعان يندرجان ضمن إمكانات النظم العربي.

ويظهر التقديم في مواضع متعددة، مثل تقديم المفعول به على الفاعل، أو تقديم الجار والمجرور، أو تقديم الخبر على المبتدأ، وكلها صور تؤدي وظائف دلالية مختلفة تتحدد بحسب السياق والمقام. فقولنا: «إياك نعبد» يختلف دلاليًا عن «نعبدك»، إذ أفاد التقديم معنى الحصر والتخصيص، وهو ما يدل على أن تغيير الرتبة يؤدي إلى تغيير في قوة الدلالة واتجاهها (الزمخشري، 2009، ج1، ص 24).

ثانياً: العدول عن الرتبة الأصلية للجملة

يقوم النظام النحوي العربي على رتب أصلية تُستنبط من العلاقات الإسنادية بين عناصر الجملة؛ فالأصل في الجملة الفعلية تقديم الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به، وفي الجملة الاسمية تقديم المبتدأ ثم الخبر. غير أن العربية تتيح العدول عن هذه الرتب دون الإخلال بصحة التركيب، وهو ما يمنح المتكلم حرية أسلوبية في توجيه المعنى.

وقد بيّن النحاة أن العدول عن الرتبة الأصلية لا يتم اعتباطاً، بل يخضع لاعتبارات دلالية وسياقية، إذ قد يُقدّم المتأخر للاهتمام به، أو يُؤخّر المتقدم لتقليل أهميته أو لإبراز عنصر آخر في الجملة (ابن هشام، 1985، ج1، ص 52). وهذا يدل على أن الرتبة في العربية ليست ثابتة بصورة جامدة، بل هي قابلة للتحويل تبعاً لمقاصد المتكلم.

كما أن العدول عن الرتبة الأصلية قد يؤدي إلى تغيير زاوية النظر إلى الحدث أو الفكرة، فحين يُقدّم المفعول به يصبح محور التركيز، وحين يُقدّم الجار والمجرور يكتسب معنى التخصيص أو الظرفية

البارزة. ومن هنا فإن الرتبة النحوية تتحول من كونها ترتيباً شكلياً إلى عنصر دلالي يسهم في بناء المعنى وتوجيهه داخل الجملة.

ثالثاً: أثره الدلالي

يُفضي العدول في الرتبة النحوية إلى آثار دلالية متعددة تتصل بإبراز المعنى أو تخصيصه أو توكيده أو توجيهه نحو بؤرة معينة داخل الخطاب. فالتقديم مثلاً قد يدل على الحصر أو الاختصاص أو الاهتمام، بينما قد يفيد التأخير التقليل من شأن العنصر المؤخر أو جعله تابعاً في الأهمية لما تقدم عليه (الجرجاني، 1992، ص 75).

كما يسهم هذا العدول في تحقيق الانسجام السياقي، إذ يراعي المتكلم مقتضيات المقام فيقدم ما يتصل بسياق الحديث أو بما يشغل ذهن المخاطب، فيتحقق بذلك تماسك نصي ودلالي بين أجزاء الخطاب. ويُعدّ هذا التوجيه الدلالي من أبرز وظائف العدول التركيبي، لأنه يجعل البنية النحوية أداة ديناميكية في خدمة المعنى، لا مجرد قالب شكلي جامد.

وفي ضوء التحليل اللساني الحديث، يمكن النظر إلى العدول في الرتبة النحوية بوصفه تحوُّلاً في البنية السطحية للجملة يهدف إلى إعادة توزيع المعلومات داخلها، بحيث ينتقل العنصر الأكثر أهمية إلى موقع الصدارة ليحظى بتركيز دلالي أكبر، وهو ما ينسجم مع الوظائف التداولية للغة التي تربط بين التركيب وسياق الاستعمال. (Halliday, 1994, p. 58)

وبذلك يتضح أن العدول في الرتبة النحوية يمثل آلية لغوية أساسية في بناء الدلالة داخل الجملة العربية، إذ يكشف عن العلاقة الوثيقة بين ترتيب العناصر النحوية وتوجيه المعنى، ويبرهن على أن الترتيب ليس مجرد نظام شكلي، بل هو أداة فاعلة في تشكيل البنية الدلالية للخطاب العربي. المطلب الثاني: العدول في البنية الإسنادية

تعدّ البنية الإسنادية الركيزة الأساسية في بناء الجملة العربية، إذ تقوم على العلاقة المحورية بين المسند والمسند إليه، بوصفها العلاقة التي يتحدد من خلالها الإخبار ويتشكل بها المعنى الأساسي للجملة. غير أن هذه البنية لا تأتي دائماً في صورتها الأصلية التامة، بل قد يلجأ المتكلم إلى العدول عنها بالحذف أو التوسّع أو التحويل بين الأنماط الإسنادية، تبعاً لمقتضيات السياق والمقام، وهو ما يكشف عن مرونة النظام النحوي العربي وقدرته على توجيه المعنى من خلال تحويل العلاقات الإسنادية داخل الجملة.

أولاً: حذف المسند أو المسند إليه

يمثل الحذف أحد أبرز مظاهر العدول في البنية الإسنادية، إذ قد يُحذف المسند أو المسند إليه مع بقاء المعنى مفهوماً من السياق. وقد أدرك النحاة والبلاغيون أهمية هذا الحذف، فعدّوه من الوسائل التي تحقق الإيجاز وتكثيف الدلالة، فضلاً عن إشراك المتلقي في استنباط المعنى المحذوف اعتماداً على القرائن السياقية (ابن هشام، 1985، ج1، ص 61).

فحذف المسند إليه قد يكون لغرض تعميم الحكم أو لعدم تعلق الغرض بذكره صراحة، كما في بعض الأساليب التي يُراد فيها التركيز على الفعل أو الحدث نفسه. أما حذف المسند، فيتحقق حين يُترك الخبر أو الفعل اعتماداً على السياق الذي يدل عليه، وهو ما يؤدي إلى إحداث فراغ دلالي يملؤه المتلقي ذهنياً، فتزداد فاعلية الخطاب وتأثيره. وقد أشار ابن جني إلى أن الحذف ليس إسقاطاً عشوائياً، بل هو حذف مقصود تحكمه دلالات السياق ومقتضيات البلاغة (ابن جني، 1999، ج2، ص 405).

ويكشف هذا النوع من العدول عن أن العلاقة الإسنادية لا تتحدد بوجود العنصرين ظاهرين دائماً، بل قد تقوم على تقدير أحدهما في الذهن، مما يدل على أن المعنى في العربية يعتمد على التفاعل بين البنية الظاهرة والبنية المقدرّة في آن واحد.

ثانياً: التوسّع في الإسناد

يظهر العدول في البنية الإسنادية أيضاً من خلال التوسّع في عناصر الإسناد، وذلك بإضافة متعلقات أو قيود دلالية توسّع من دائرة الإخبار وتثري المعنى. فالمتكلم قد لا يكتفي بالمسند والمسند إليه في صورتها البسيطة، بل يعتمد إلى إدخال ظروف أو جار ومجرور أو حال أو مفاعيل متعددة، لتصيح الجملة أكثر قدرة على تحديد الحدث وبيان ملاساته.

وقد تناول النحاة هذه الظاهرة في إطار ما يُعرف بالتوسّع في التراكيب، حيث أشاروا إلى أن زيادة المتعلقات لا تتغير أصل الإسناد، لكنها تضيف إليه أبعاداً دلالية جديدة تتصل بالزمان أو المكان أو الكيفية أو السبب، مما يجعل المعنى أكثر دقة وتحديداً (سيبويه، 1988، ج1، ص33). ومن هنا فإن التوسّع في الإسناد يمثل عدولاً عن البنية الإسنادية المختصرة إلى بنية موسّعة، هدفها إثراء المعنى وتفصيله. كما أن هذا التوسّع قد يؤدي إلى تغيير بؤرة المعنى داخل الجملة، إذ قد يتحول التركيز من المسند إليه إلى أحد المتعلقات، بحسب موقعه التركيبي ووظيفته الدلالية. وبذلك يغدو التوسّع في الإسناد وسيلة لإعادة توزيع الأهمية الدلالية بين عناصر الجملة، بما يخدم المقاصد التواصلية للخطاب.

ثالثاً: العدول بين الجملة الاسمية والفعلية

يتجلى العدول في البنية الإسنادية كذلك في التحول بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، وهو تحول لا يقتصر على الجانب الشكلي، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدلالة الزمنية والتداولية. فالجملة الاسمية تفيد غالباً الثبوت والاستقرار، في حين تفيد الجملة الفعلية التجدد والحدوث، ومن ثمّ فإن اختيار أحد النمطين يُعدّ عدولاً مقصوداً لتحقيق معنى مخصوص (حسان، 2006، ص128).

وقد أشار البلاغيون إلى أن العدول من الفعلية إلى الاسمية قد يُقصد به تأكيد دوام الحدث أو استمراره، بينما يدل العدول من الاسمية إلى الفعلية على إبراز الحركة والتجدد. وهذا التحول في نمط الإسناد ينعكس مباشرة على الدلالة، لأنه يغيّر زاوية النظر إلى الحدث: أهو ثابت مستقر أم متجدد متحرك؟ (الجرجاني، 1992، ص82).

ومن ثمّ فإنّ العدول بين الجملتين الاسمية والفعلية لا يُعدّ مجرد تنويع أسلوب، بل هو اختيار دلالي واع، تتحكم فيه طبيعة المعنى المراد إبرازه وسياق الخطاب الذي يوجّه هذا الاختيار. ويكشف هذا النوع من العدول عن أن البنية الإسنادية في العربية بنية مرنة قابلة للتحول، وأن هذه التحولات تؤدي دوراً محورياً في توجيه الدلالة وبناء المعنى داخل النص.

وبناءً على ما تقدم، يتضح أن العدول في البنية الإسنادية يمثل أحد الأنماط الجوهرية للعدول التركيبي في العربية، إذ يتجلى في الحذف والتوسّع والتحويل بين أنماط الإسناد، وكلها وسائل لغوية تهدف إلى إعادة تشكيل العلاقات الإسنادية بما يخدم المقاصد الدلالية والتداولية للخطاب العربي.

المطلب الثالث: العدول في التراكيب الإضافية والظرفية

تتجلى ظاهرة العدول التركيبي في العربية كذلك في التراكيب الإضافية والظرفية، إذ تمثل هذه التراكيب مجالاً واسعاً لتوجيه الدلالة عبر إعادة توزيع العلاقات النحوية بين عناصر الجملة. فالمفعولات، والجار والمجرور، والظروف والتوابع، ليست مجرد عناصر مكملة للإسناد، بل هي

وحدات تركيبية فاعلة يمكن العدول في ترتيبها أو موقعها أو بنيتها لتحقيق دلالات مخصوصة تتصل بالتخصيص، أو التوكيد، أو إبراز بعض الملابس المرتبطة بالفعل أو الحدث.

أولاً: العدول في المفعولات

يظهر العدول في المفعولات من خلال تغيير ترتيبها أو تقديم بعضها على الفعل أو الفاعل، أو حذفها أو توسيعها، تبعاً لمقتضيات المعنى والسياق. فالأصل في الجملة الفعلية أن يأتي الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به، غير أن العربية تتيح تقديم المفعول به أو تأخيره أو تعدد المفاعيل، وهو ما يؤدي إلى توجيه دلالي خاص.

وقد أشار النحاة إلى أن تقديم المفعول به على الفاعل أو الفعل يفيد العناية به وتخصيصه بالاهتمام، لأن المتكلم يضعه في صدر الجملة ليحمله محور الدلالة (سيبويه، 1988، ج1، ص35). ويؤكد البلاغيون أن هذا العدول يؤدي وظيفة دلالية تتصل بالحصر أو الاختصاص أو إبراز العنصر المقدم بوصفه بؤرة المعنى داخل السياق (الجرجاني، 1992، ص88).

كما يتحقق العدول في المفعولات من خلال حذف بعضها اعتماداً على القرينة، مما يؤدي إلى تكثيف المعنى وإشراك المتلقي في استنباط العنصر المحذوف، وهو ما يدل على أن المفعول ليس عنصراً ثابتاً الحضور، بل يمكن العدول عن ذكره حين يكون السياق دالاً عليه (ابن هشام، 1985، ج1، ص67). وبذلك يصبح العدول في المفعولات وسيلة لإعادة تنظيم العلاقات الدلالية بين الفعل ومتعلقاته، بما ينسجم مع المقاصد التواصلية للخطاب.

ثانياً: العدول في الجار والمجرور

يعدّ الجار والمجرور من التراكيب التي تتسم بمرونة تركيبية كبيرة، إذ يمكن تقديمه أو تأخيره أو توسيعه أو حذفه، تبعاً لمقتضيات المعنى. ويؤدي تقديم الجار والمجرور غالباً إلى إفادة الاختصاص أو التوكيد أو تحديد مجال الحدث، لأن وضعه في صدر الجملة يجعله مركز الاهتمام الدلالي. وقد أشار ابن جني إلى أن تقديم المتعلقات، ومنها الجار والمجرور، يؤدي إلى تغيير في توجيه المعنى، لأن ترتيب العناصر داخل الجملة ينعكس مباشرة على ترتيب الأهمية الدلالية بينها (ابن جني، 1999، ج2، ص410). كما يرى البلاغيون أن تقديم الجار والمجرور قد يفيد القصر أو التخصيص، بحسب السياق الذي يرد فيه، مما يجعله أداة دلالية فاعلة لا مجرد عنصر تكميلي في التركيب (الزمخشري، 2009، ج1، ص41).

ومن ثم فإن العدول في الجار والمجرور يمثل انتقالاً من ترتيب تركيبى مألوف إلى ترتيب مقصود يهدف إلى إبراز علاقة معينة بين الحدث ومجاله الزماني أو المكاني أو السببي، وهو ما يسهم في إثراء المعنى وتحديد أبعاده بدقة.

ثالثاً: العدول في الظروف والتوابع

تعدّ الظروف والتوابع من العناصر التي يمكن العدول في موقعها التركيبى لتحقيق وظائف دلالية متنوعة، إذ قد تُقدّم الظروف على الفعل أو تُؤخّر عنه، وقد تتعدد التوابع أو يُعدّل عن الأصل في ترتيبها، وكل ذلك يؤدي إلى إعادة توجيه المعنى داخل الجملة. فالظروف، بوصفها دالة على الزمان أو المكان أو الكيفية، تسهم في تحديد إطار الحدث، وتقديمها في الجملة قد يفيد إبراز الملابس الزمنية أو المكانية للحدث قبل الإخبار عنه، مما يمنح هذه الملابس

أهمية دلالية خاصة (حسان، 2006، ص 134). أما تأخيرها فقد يجعلها عناصر تابعة تكمل المعنى دون أن تكون في بؤرته.

كما يظهر العدول في التوابع، كالنعت أو العطف أو التوكيد، من خلال تغيير ترتيبها أو توسيعها أو الاقتصار على بعضها دون بعض، وهو ما يؤدي إلى تنوع الدلالة وإبراز جوانب معينة من المعنى دون غيرها. وقد بين النحاة أن هذه التوابع، على الرغم من كونها عناصر ثانوية في التركيب، فإن تغيير مواقعها قد يؤثر في فهم المعنى ويعيد توزيع التركيز الدلالي بين أجزاء الجملة (ابن يعيش، 2001، ج3، ص 215).

وبذلك يتضح أن العدول في التراكيب الإضافية والظرفية يمثل مجالاً واسعاً لإعادة تشكيل العلاقات النحوية داخل الجملة العربية، وأن هذا العدول لا يقتصر على الجانب الشكلي، بل يؤدي دوراً حاسماً في توجيه الدلالة وتحديد بؤر المعنى، مما يؤكد التكامل العميق بين البنية التركيبية والبعد الدلالي في اللغة العربية.

المبحث الثالث: الأثر الدلالي للعدول التركيبي

المطلب الأول: العدول وبناء المعنى التداولي

لا يقتصر أثر العدول التركيبي في العربية على الجانب النحوي أو البلاغي، بل يمتد إلى المستوى التداولي الذي يعنى بعلاقة الخطاب بسياق الاستعمال ومقتضيات المقام. فالعدول التركيبي يُعدّ آلية لغوية فاعلة في بناء المعنى التداولي، لأنه يقوم على اختيار بنية تركيبية معينة دون غيرها استجابة لظروف التواصل ومقاصد المتكلم، مما يؤدي إلى إعادة توجيه الدلالة تبعاً لسياق الخطاب ومقتضياته.

أولاً: العدول وسياق المقام

يرتبط العدول التركيبي ارتباطاً وثيقاً بسياق المقام، إذ لا يمكن تفسير كثير من صور العدول دون النظر إلى الملابس التي تحيط بالخطاب، من حال المتكلم والمخاطب، والزمان والمكان، والهدف من الكلام. فالمتكلم لا يعدل عن الرتبة الأصلية أو البنية المتوقعة عبثاً، بل يفعل ذلك استجابة لما يفرضه المقام من مقتضيات دلالية وتواصلية.

وقد أشار البلاغيون إلى أن اختلاف الأساليب إنما يكون تبعاً لاختلاف المقامات، وأن المتكلم يختار من التراكيب ما يلائم حال المخاطب والغرض من الخطاب، وهو ما يدل على أن العدول التركيبي يتأسس على مراعاة مقتضى الحال (الجرجاني، 1992، ص 102). فالتقديم مثلاً قد يأتي حين يكون المتقدم محلّ عناية في المقام، والحذف قد يُستعمل حين يكون المحذوف معلوماً من السياق، وكل ذلك يندرج ضمن توظيف التركيب لخدمة المعنى التداولي.

ومن هنا يتضح أن العدول التركيبي يمثل استجابة لغوية لظروف المقام، إذ يُعاد ترتيب عناصر الجملة أو حذف بعضها أو توسيعها تبعاً لما يقتضيه السياق من إبراز معنى أو تخصيصه أو توجيهه، مما يجعل المعنى الناتج معنى تداولياً يتحدد في ضوء السياق لا في ضوء البنية المجردة وحدها.

ثانياً: العدول والوظيفة البلاغية

يؤدي العدول التركيبي وظيفه بلاغية واضحة تتمثل في إحداث أثر أسلوبى خاص في نفس المتلقي، من خلال مفارقة الترتيب المألوف أو البنية المتوقعة. فالعدول يلفت الانتباه ويثير الذهن، لأنه يخرق

توقعات المتلقي فيدفعه إلى إعادة تأمل المعنى واستكشاف مقاصده الخفية، وهو ما يمنح الخطاب قوة تأثير وجاذبية بلاغية.

وقد أكد البلاغيون أن تغيير مواقع الألفاظ داخل الجملة يؤدي إلى تنوع المعاني وإغنائها، وأن التقديم والتأخير والحذف والذكر ليست مجرد ظواهر شكلية، بل وسائل بلاغية تُستعمل لإبراز المعنى أو تقويته أو تخصيصه (الزمخشري، 2009، ج1، ص 58). فالعدول إذن يسهم في تكثيف الدلالة وإضفاء طابع إيحائي على الخطاب، بحيث يتجاوز المعنى الظاهر إلى معانٍ ضمنية تتكشف من خلال البنية المعدولة. كما أن الوظيفة البلاغية للعدول تتجلى في تحقيق الانسجام بين الشكل والمعنى، إذ يختار المتكلم بنية تركيبية معينة تتلاءم مع طبيعة الفكرة المراد التعبير عنها، فيصيح التركيب ذاته وسيلة تصويرية تعكس المعنى المقصود وتعززه في ذهن المتلقي.

ثالثاً: العدول وتوجيه التأويل

من أبرز الآثار التداولية للعدول التركيبي قدرته على توجيه التأويل لدى المتلقي، إذ إن تغيير البنية التركيبية يؤدي إلى فتح مسارات دلالية متعددة، ويجعل المتلقي يعيد قراءة الخطاب في ضوء البنية الجديدة. فالعدول لا يغيّر المعنى المباشر فحسب، بل يعيد ترتيب أولويات الفهم ويحدد زاوية النظر إلى الحدث أو الفكرة.

وقد أشار بعض الدارسين المحدثين إلى أن البنية التركيبية تمثل إطاراً لتوزيع المعلومات داخل الجملة، وأن تقديم عنصر أو حذفه أو توسيعه يؤدي إلى تغيير في مركز الثقل الدلالي، ومن ثم إلى اختلاف في تفسير الخطاب وتأويله. (Halliday, 1994, p. 72) وبذلك يغدو العدول التركيبي أداة تداولية فاعلة في توجيه عملية الفهم، لأنه يتحكم في بؤرة الانتباه ويحدد المسار التأويلي الذي يسلكه المتلقي.

كما أن العدول قد يخلق نوعاً من الغموض المقصود أو الإيحاء الدلالي، مما يدفع المتلقي إلى البحث عن المعنى الكامن وراء البنية الظاهرة، فيتعدد التأويل تبعاً لتعدد القرائن السياقية. وهذا التعدد لا يُعدّ نقصاً في الدلالة، بل هو مظهر من مظاهر غنى اللغة العربية وقدرتها على استيعاب طبقات متعددة من المعنى في إطار تركيب واحد.

وبناءً على ذلك، يتبين أن العدول التركيبي يؤدي دوراً محورياً في بناء المعنى التداولي، إذ يتفاعل مع سياق المقام ليحدد الوظيفة البلاغية للخطاب، ويسهم في توجيه التأويل لدى المتلقي، مما يجعله ظاهرة لغوية تجمع بين البعد النحوي والبلاغي والتداولي في آن واحد.

المطلب الثاني: العدول والتركيز الدلالي
يمثل العدول التركيبي آلية مركزية في تحقيق التركيز الدلالي داخل الجملة العربية، إذ يتيح للمتكلم إعادة توزيع عناصر التركيب بما يؤدي إلى إبراز معنى معين أو تخصيصه أو توكيده وفق مقتضيات السياق والمقام. فالتغيير في ترتيب المكونات أو في بنيتها لا يقتصر على الجانب الشكلي، بل ينعكس مباشرة على درجة وضوح المعنى وبؤرته داخل الخطاب، مما يجعل العدول أداة دلالية واعية في بناء الرسالة اللغوية وتوجيهها.

أولاً: إبراز المعنى وتخصيصه

يؤدي العدول التركيبي دوراً حاسماً في إبراز المعنى المراد وتسليط الضوء عليه داخل الجملة، وذلك من خلال تقديم عنصر معين أو إعادة تنظيم العلاقات التركيبية بين المكونات. فحين يُقدّم عنصر

على غير رتبته الأصلية، فإن هذا التقديم يدل غالبًا على عناية خاصة به، ويجعله محور التركيز الدلالي في الخطاب. وقد أشار البلاغيون إلى أن التقديم يفيد الاختصاص والاهتمام، لأن المتكلم يضع المتقدم في صدر الجملة ليحمله بؤرة المعنى ومركزه (الجرجاني، 1992، ص 115).

كما أن تخصيص المعنى يتحقق حين يُعاد ترتيب عناصر الجملة بحيث يُبرز أحدها بوصفه العنصر الأساس الذي يتجه إليه الحكم أو الخبر. وهذا التخصيص لا يتأتى من المفردات وحدها، بل من موقعها التركيبي داخل الجملة، إذ إن تغيير الموقع يؤدي إلى تغيير زاوية النظر إلى الحدث أو الفكرة، ومن ثم إلى تخصيص الدلالة وتحديد مجالها.

ومن هنا يتضح أن العدول التركيبي لا يُستعمل لمجرد التنويع الأسلوبي، بل هو وسيلة دلالية لإبراز معنى معين وتوجيه الانتباه إليه، بحيث يصبح هذا المعنى هو الغاية الرئيسة من الخطاب.

ثانيًا: التوكيد والتخصيص عبر العدول

يُسهّم العدول التركيبي في تحقيق التوكيد الدلالي، إذ يؤدي تقديم بعض العناصر أو تكرارها أو العدول في بنيتها إلى تقوية الحكم وإزالة اللبس عنه. فالتقديم مثلًا قد يفيد القصر أو الحصر، مما يجعل المعنى أكثر تحديدًا وقوة في ذهن المتلقي. وقد بيّن النحاة أن تقديم ما حقه التأخير يدل على توكيده والعناية به، لأن موقع الصدارة في الجملة يضفي عليه قوة معنوية خاصة (ابن هشام، 1985، ج 1، ص 73).

كما يتحقق التوكيد من خلال العدول بالحذف أو الذكر، إذ قد يُذكر عنصر كان مقتضى الأصل حذفه لإبراز أهميته وتأكيد حضوره الدلالي، أو يُحذف عنصر معلوم من السياق ليتركز المعنى في العنصر الباقي. وفي كلا الحالتين يتحقق التخصيص الدلالي عبر إعادة توزيع الأهمية بين عناصر الجملة. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن اختلاف النظم يؤدي إلى اختلاف قوة المعنى وضعفه، وأن تغيير مواقع الألفاظ داخل التركيب يسهم في توكيد بعض المعاني أو تخصيصها بحسب ما يقتضيه السياق (الجرجاني، 1992، ص 118). وهذا يدل على أن العدول التركيبي أداة فعالة في تحقيق التوكيد الدلالي، لأنه يتحكم في ترتيب العناصر التي تحمل الحكم الأساسي داخل الجملة.

ثالثًا: العدول والاقتصاد اللغوي

يُعدّ الاقتصاد اللغوي أحد الآثار الدلالية المهمة للعدول التركيبي، إذ يتيح هذا العدول التعبير عن معاني واسعة بألفاظ أقل من خلال الحذف أو الاختصار أو إعادة توزيع عناصر الجملة. فاللغة العربية تميل بطبيعتها إلى الإيجاز، ويُعدّ العدول التركيبي وسيلة لتحقيق هذا الإيجاز دون الإخلال بوضوح المعنى. فحذف بعض عناصر الجملة مع بقاء دلالتها مفهومة من السياق يؤدي إلى تكثيف المعنى وتقليل العبء اللفظي، وهو ما أشار إليه ابن جني حين عدّ الحذف بابًا من أبواب الإيجاز الذي تعتمد فيه اللغة على فهم المخاطب واستحضار القرائن (ابن جني، 1999، ج 2، ص 412). وبذلك يتحقق الاقتصاد اللغوي من خلال العدول عن الذكر الصريح إلى التقدير الذهني، فيصبح المعنى أكثر كثافة وتركيزًا.

كما أن العدول يسهم في تجنب التكرار اللفظي، إذ يُعاد ترتيب العناصر أو يُستغنى عن بعضها، فيتحقق التنويع الأسلوبي مع الحفاظ على المعنى الأساس. وهذا الاقتصاد لا يعني نقصًا في الدلالة، بل يدل على كفاءة النظام التركيبي العربي وقدرته على التعبير المكثف الذي يجمع بين الإيجاز والوضوح في آن واحد.

وبناءً على ما تقدم، يتبين أن العدول التركيبي يمثل أداة دلالية فاعلة في تحقيق التركيز المعنوي، إذ يسهم في إبراز المعنى وتخصيصه، ويحقق التوكيد الدلالي عبر إعادة تنظيم عناصر الجملة، فضلًا عن

دوره في تحقيق الاقتصاد اللغوي الذي يمنح الخطاب كثافة دلالية دون إطالة لفظية، وهو ما يؤكد القيمة التداولية والبلاغية لهذه الظاهرة في بناء المعنى داخل العربية.

المطلب الثالث: العدول التركيبي في النص القرآني والشعري

يُعدّ النص القرآني والشعر العربي من أخصب الميادين التي تتجلى فيها ظاهرة العدول التركيبي بوصفها أداة دلالية وبلاغية فاعلة، إذ يكشف تحليل البنية التركيبية في هذين النصين عن قدرة اللغة العربية على توظيف الترتيب والتحويل والحذف والتوسّع لتحقيق معانٍ دقيقة تتجاوز ظاهر الألفاظ. فالعدول في هذه النصوص لا يأتي اعتباطاً، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقاصد الدلالية والتداولية التي يسعى الخطاب إلى تحقيقها.

أولاً: أمثلة تحليلية قرآنية

يبرز العدول التركيبي بوضوح في الأسلوب القرآني، حيث تنتوّع صوره بين التقديم والتأخير، والحذف، والتحويل في البنية الإسنادية، بما يحقق دلالات مخصوصة تتلاءم مع سياق الخطاب ومقامه.

النموذج الأول: قوله تعالى

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفتح: 5)

التحليل النحوي: الأصل في التركيب: «نعبدُكَ»، حيث يأتي الفعل متقدماً ثم المفعول به. لكن النص القرآني عدل عن هذا الترتيب إلى تقديم المفعول به «إِيَّاكَ» على الفعل «نعبد.»

التحليل الدلالي: أفاد هذا العدول معنى الحصر والتخصيص، أي: لا نعبد إلا إِيَّاكَ. فالتقديم هنا نقل المفعول به من موقع التبعية إلى موقع الصدارة، مما جعله بؤرة المعنى ومحوره، وهو ما يدل على توكيد التوحيد وإفراد العبادة لله تعالى (الزمخشري، 2009، ج1، ص35).

ومن ثم فإن العدول التركيبي أسهم في توليد دلالة عقدية عميقة لا تتحقق بالترتيب الأصلي.

النموذج الثاني: قوله تعالى

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23) **التحليل النحوي:**

تقدّم الجار والمجرور «على الله» على الفعل «فتوكلّوا»، والأصل: «فتوكلّوا على الله.»

التحليل الدلالي: أفاد هذا التقديم معنى الاختصاص، أي: توكلّوا على الله وحده دون غيره. وقد بيّن البلاغيون أن تقديم المتعلّق يفيد القصر والتخصيص بحسب السياق، وهو ما يتناسب مع مقام الحثّ على التوكل الصادق (الجرجاني، 1992، ص123).

فالعدول هنا لم يغيّر البنية فحسب، بل وجّه الدلالة نحو معنى الحصر والتوكيد.

النموذج الثالث: قوله تعالى

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ (هود: 69)

التحليل النحوي: جاء ردّ إبراهيم عليه السلام بجملة اسمية «سَلَامٌ» بدل الجملة الفعلية «نسلم سلاماً» أو نحوها.

التحليل الدلالي: يدل العدول من الفعلية إلى الاسمية على إفادة الثبوت والدوام، فالجملة الاسمية أرسخ في الدلالة على الاستقرار من الفعلية، مما يعكس كمال التحية ودوامها (حسان، 2006، ص140).

وهذا التحول في نمط الإسناد عدول تركيبى أحدث أثراً دلاليّاً يتمثل في تقوية معنى السلام وثباته.

ثانياً: أمثلة شعرية عربية

لا يقل الشعر العربي ثراءً في توظيف العدول التركيبي، إذ يلجأ الشاعر إلى تغيير الرتبة أو البنية لتحقيق إيقاع دلالي وجمالي يتلاءم مع تجربته الشعرية.

النموذج الأول: قول المتنبي

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
التحليل النحوي: تقدّم الجار والمجرور «على قدر أهل العزم» على الفعل «تأتي»، والأصل: «تأتي العزائم على قدر أهل العزم.»

التحليل الدلالي: أفاد هذا التقديم إبراز معيار العزم بوصفه العنصر المحوري في المعنى، فجعل الشاعر «قدر أهل العزم» هو بؤرة التركيز قبل ذكر العزائم نفسها. وهذا العدول أضفى قوة دلالية تؤكد العلاقة السببية بين العزم والعزائم، مما يعكس رؤية فلسفية في بناء المعنى الشعري.

النموذج الثاني: قول امرئ القيس

قفًا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل
التحليل النحوي: جاء الفعل «قفًا» بصيغة الأمر للمثنى، وهو عدول عن الخطاب المفرد، مع أن المخاطب قد يكون واحدًا.

التحليل الدلالي: هذا العدول التركيبي أسهم في توسيع دائرة الخطاب، فكأن الشاعر يشرك السامع معه في تجربة البكاء على الأطلال، مما يمنح المعنى بعداً وجدانياً جماعياً لا يتحقق بصيغة المفرد (ابن يعيش، 2001، ج4، ص 88). فالعدول هنا أدى وظيفة دلالية تداولية تتمثل في استحضار شريك وجداني في التجربة الشعرية.

ثالثاً: تحليل نحوي دلالي لكل نموذج

تكشف النماذج القرآنية والشعرية السابقة أن العدول التركيبي يعمل في مستويين متلازمين:

1. المستوى النحوي: يتمثل في تغيير الرتبة أو نمط الإسناد أو موقع المتعلقات داخل الجملة، مع بقاء سلامة التركيب وفق قواعد العربية.
 2. المستوى الدلالي: يتمثل في توجيه المعنى نحو غرض مخصوص، كالحصر، أو التوكيد، أو التخصيص، أو إبراز عنصر دلالي معين بوصفه محور الخطاب.
- ومن خلال هذا التحليل يتبين أن العدول التركيبي في النص القرآني والشعري ليس مجرد تنويع أسلوبية، بل هو آلية لغوية دقيقة تُسهم في بناء المعنى وتوجيهه، إذ تتكامل البنية التركيبية مع المقاصد الدلالية لتنتج خطاباً غنياً بالإيحاءات والمعاني المتعددة. وهذا ما يؤكد أن دراسة العدول التركيبي تمثل مدخلاً أساساً لفهم العمق الدلالي للنص العربي في أعلى تجلياته البيانية والأدبية.

المبحث الرابع: المقاربة النحوية الدلالية للعدول التركيبي

المطلب الأول: التحليل النحوي للعدول

يمثل التحليل النحوي للعدول التركيبي مدخلاً أساساً لفهم هذه الظاهرة في إطارها العلمي الدقيق، إذ يقوم على تفسير التحولات التي تطرأ على البنية التركيبية للجملة في ضوء القواعد النحوية المقررة، مع مراعاة ما يفرضه الاستعمال اللغوي من تنوع وتوسع في توظيف هذه القواعد. فالعدول التركيبي لا يُفهم بوصفه خروجاً عن النظام النحوي، بل بوصفه توظيفاً مشروعاً لإمكاناته الكامنة، بما يحقق مقاصد دلالية وتداولية مخصوصة داخل الخطاب.

أولاً: تفسير العدول وفق القواعد النحوية

ينطلق التحليل النحوي للعدول من مبدأ أساس مفاده أن كل عدول تركيبى في العربية يستند إلى أصل نحوي يمكن تفسيره في ضوء القواعد العامة للغة، إذ إن النظام النحوي العربي يقوم على مجموعة من الرتب والعلاقات الإسنادية التي تُعدّ أصولاً قياسية، غير أن هذه الأصول قابلة للتحويل والتقديم والحذف والتوسع وفق ضوابط مقرّرة.

وقد أشار النحاة إلى أن كثيراً من الظواهر التي قد تُعدّ عدولاً في ظاهرها، يمكن تفسيرها تفسيراً نحوياً من خلال قواعد التقديم والتأخير أو الحذف والتقدير أو التوسع في المتعلقات، وهو ما يدل على أن العدول لا يخرج عن النظام النحوي، بل يندرج ضمن إمكاناته التعبيرية (سيبويه، 1988، ج1، ص 38). فالتقديم مثلاً يُفسّر نحوياً بأنه تغيير في الرتبة مع بقاء العامل معمولاً به، والحذف يُفسّر بتقديم العنصر المحذوف اعتماداً على القرينة السياقية.

كما أن النحاة ميّزوا بين الأصل والفرع في التراكيب، فجعلوا الأصل هو الترتيب الأكثر شيوعاً، وعدّوا ما خالفه فرعاً جائزاً إذا دلّ عليه دليل نحوي أو بلاغي. وهذا التمييز يفسّر ظاهرة العدول بوصفها انتقالاً من الأصل إلى الفرع دون أن يُعدّ ذلك مخالفة للقياس، ما دام مستنداً إلى قاعدة نحوية معتبرة (ابن هشام، 1985، ج1، ص 80).

ومن هنا يتضح أن التحليل النحوي للعدول يقوم على إرجاع البنية المعدولة إلى أصلها التركيبى، ثم بيان كيفية التحول عنه، مع تفسير هذا التحول في ضوء القواعد التي تجيزه. وبذلك يغدو العدول ظاهرة منضبطة بقوانين النحو، لا خروجاً اعتباطياً عن نظامه.

ثانياً: العدول بين القياس والاستعمال

يثير العدول التركيبى إشكالية العلاقة بين القياس النحوي والاستعمال اللغوي، إذ قد يجيز القياس ترتيباً معيناً للجملة، بينما يأتي الاستعمال الفعلي مخالفاً له لتحقيق غرض دلالي أو بلاغي. ومن ثمّ فإن فهم العدول يقتضي النظر إلى اللغة بوصفها نظاماً يقوم على التفاعل بين القاعدة والاستعمال، لا على الجمود عند أحدهما دون الآخر.

وقد أدرك النحاة هذه العلاقة، ففرّقوا بين ما يُقاس عليه في اللغة وما يُستعمل في الكلام، ورأوا أن الاستعمال المأثور عن العرب حجة يُعتمد بها حتى وإن خالف بعض صور القياس، ما دام له وجه نحوي سائغ (ابن جني، 1999، ج1، ص 50). وهذا يدل على أن العدول التركيبى قد يكون مبنياً على استعمال فصيح استقر في كلام العرب، فصار جزءاً من نظام اللغة المقبول.

كما أن البلاغيين نظروا إلى العدول بوصفه اختياراً أسلوبياً يبرّره المقام، حتى وإن خالف الترتيب القياسي، لأن الغاية من الكلام ليست مجرد موافقة القاعدة، بل تحقيق المعنى المراد بأبلغ صورة ممكنة (الجرجاني، 1992، ص 135). وبذلك يتضح أن القياس يضع الإطار العام للتركيب، في حين يمنح الاستعمال للمنكلم حرية العدول عنه في حدود ما تسمح به الذائقة اللغوية والسياق.

وفي ضوء هذا التفاعل بين القياس والاستعمال، يمكن القول إن العدول التركيبى يمثل منطقة وسطى بين النظام والقصد الأسلوبى، فهو من جهة يخضع للقواعد النحوية التي تفسّره وتجزّيه، ومن جهة أخرى يستند إلى الاستعمال البلاغى الذي يمنحه مشروعيته الدلالية والتداولية. ومن ثمّ فإن التحليل النحوي للعدول لا يكتفى إلا بمراعاة هذين البعدين معاً، لأن العدول ظاهرة تتأسس على توازن دقيق بين صرامة القاعدة ومرونة الاستعمال في اللغة العربية.

المطلب الثاني: التحليل الدلالي

يمثل التحليل الدلالي للعدول التركيبي خطوة مكملة للتحليل النحوي، إذ يركّز على بيان الكيفية التي يسهم بها العدول في توليد المعنى وتوجيهه داخل الخطاب. فالتحول في البنية التركيبية لا يظل أثره محصوراً في المستوى الشكلي، بل يمتد ليُحدث تغييراً في البنية الدلالية للجملة، من حيث إبراز بعض المعاني، أو تخصيصها، أو فتح آفاق تأويلية جديدة تتحدد في ضوء السياق والمقام. ومن هنا فإن العدول التركيبي يُعدّ أداة دلالية فاعلة تتجاوز حدود التنظيم النحوي إلى مستوى إنتاج المعنى ذاته.

أولاً: العدول بوصفه مولدًا للمعنى

ينظر إلى العدول التركيبي بوصفه مولدًا للمعنى، لأنه يقوم على إعادة ترتيب العلاقات بين مكونات الجملة، مما يؤدي إلى نشوء دلالات جديدة لا تتحقق في البنية الأصلية المعيارية. فالمعنى في العربية لا يتحدد بالمفردات منفردة، بل يتشكل من خلال العلاقات التركيبية التي تربط بينها، ومن ثم فإن تغيير هذه العلاقات يؤدي بالضرورة إلى تغيير في الدلالة أو في درجة وضوحها وقوتها.

وقد أكد عبد القاهر الجرجاني أن اختلاف النظم يفرض إلى اختلاف المعنى، وأن تقديم لفظ أو تأخيرها أو حذف عنصر أو ذكره يغيّر وجه الدلالة تبعاً لتغيّر العلاقات التركيبية بين الألفاظ (الجرجاني، 1992، ص 140). وبذلك يصبح العدول وسيلة لإعادة بناء المعنى داخل الجملة، إذ ينقل التركيز من عنصر إلى آخر، أو يضيف إلى المعنى بعداً إيحائياً جديداً.

كما أن العدول قد يولد معاني ثانوية أو ضمنية تتجاوز المعنى المباشر، فيتحول التركيب المعدول إلى بنية مفتوحة على احتمالات تأويلية متعددة. وهذا ما يفسّر لجوء النصوص البلاغية والأدبية إلى العدول التركيبي، لما يمنحه من قدرة على تكثيف الدلالة وإثرائها دون الحاجة إلى زيادة لفظية. فالعدول هنا لا يقتصر على تغيير الشكل، بل يسهم في خلق طبقات دلالية مترابطة تتكشف بحسب السياق ودرجة تأمل المتلقي.

وفي ضوء التحليل اللساني الحديث، يمكن تفسير هذه القدرة التوليدية للعدول من خلال فكرة التحولات التركيبية التي تنتج صيغاً سطحية مختلفة لبنية دلالية واحدة، بحيث تؤدي كل صيغة وظيفة دلالية خاصة رغم اشتراكها في المعنى الأساسي. (Chomsky, 1965, p. 162) ومن ثم فإن العدول التركيبي يُعدّ وسيلة لإعادة صياغة المعنى عبر تغيير البنية الظاهرة دون المساس بالمعنى العميق، مع إضافة ظلال دلالية جديدة ترتبط بطريقة العرض والتركيز.

ثانياً: دور السياق في توجيه الدلالة

لا يمكن إدراك الأثر الدلالي للعدول التركيبي إدراكاً كاملاً دون مراعاة دور السياق في توجيه الدلالة، إذ إن البنية المعدولة لا تحمل معناها النهائي بذاتها، بل تكتسبه من خلال تفاعلها مع سياق الخطاب ومقتضيات المقام. فالسياق يحدد الغرض من العدول، ويبيّن ما إذا كان يراد به التخصيص أو التوكيد أو الحصر أو غير ذلك من الدلالات.

وقد بيّن البلاغيون أن المعاني لا تُفهم على وجهها الصحيح إلا بمراعاة المقام، وأن اختلاف الأساليب راجع إلى اختلاف المقاصد والسياقات التي ترد فيها (الجرجاني، 1992، ص 145). ومن ثم فإن العدول التركيبي يُفسّر دلاليًا في ضوء ما يحيط به من قرائن لفظية ومعنوية، لأن هذه القرائن هي التي تحدد وجه الدلالة المقصودة من التغيير التركيبي.

كما تؤكد الدراسات التداولية الحديثة أن المعنى يتحدد من خلال السياق الاستعمالي، وأن البنية اللغوية لا تؤدي دلالتها كاملة إلا إذا وُضعت في إطارها التواصلية الذي يبيّن علاقة المتكلم بالمخاطب وغرض الخطاب. (Halliday, 1994, p. 81) وبذلك يصبح العدول التركيبي أداة تداولية تسهم في توجيه الدلالة تبعاً لمقتضيات الموقف اللغوي، إذ قد يُقدّم عنصر في سياق للتوكيد، وفي سياق آخر للتخصيص أو للمقابلة، بحسب ما يفرضه المقام.

ومن هنا يتضح أن التحليل الدلالي للعدول التركيبي يقوم على ركيزتين متكاملتين: الأولى هي قدرة العدول على توليد معانٍ جديدة عبر إعادة تنظيم العلاقات التركيبية، والثانية هي دور السياق في تحديد وجه هذه المعاني وتوجيهها نحو المقصد الذي يريده المتكلم. وهذا التكامل يؤكد أن العدول التركيبي ليس مجرد ظاهرة نحوية، بل هو آلية دلالية تداولية تسهم بفاعلية في بناء المعنى داخل الخطاب العربي.

المطلب الثالث: التكامل بين النحو والدلالة

يُعدّ التكامل بين النحو والدلالة من القضايا الجوهرية في دراسة العدول التركيبي، إذ لا يمكن تفسير هذه الظاهرة تفسيراً وافياً إذا اقتصر النظر فيها على البنية الشكلية أو على المعنى بمعزل عن النظام النحوي. فالعدول التركيبي يمثل نقطة التقاء بين الشكل والمعنى، حيث تتحول القواعد النحوية إلى أدوات وظيفية تسهم في بناء الدلالة وتوجيهها داخل الخطاب. ومن هنا فإن المقاربة النحوية الدلالية تقوم على النظر إلى التركيب بوصفه بنية شكلية ذات وظيفة معنوية، لا قالباً جامداً منفصلاً عن المقصد الدلالي.

أولاً: جدلية الشكل والمعنى

تقوم العلاقة بين النحو والدلالة على جدلية تفاعلية، إذ يؤثر الشكل التركيبي في بناء المعنى، كما يتأثر اختياره بالمقصد الدلالي الذي يسعى المتكلم إلى تحقيقه. فليست البنية النحوية مجرد إطار شكلي تُسكب فيه المعاني، بل هي عنصر فاعل في تشكيل هذه المعاني وتحديد أبعادها. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن النحو هو الأساس الذي تُبنى عليه الدلالة، وأن المعاني تتولد من العلاقات التركيبية بين الألفاظ لا من المفردات منفردة (الجرجاني، 1992، ص 160).

ويؤكد هذا التصور أن الشكل اللغوي لا ينفصل عن المضمون الدلالي، لأن تغيير ترتيب الكلمات أو نمط الإسناد أو موقع المتعلقات يؤدي إلى تغيير في زاوية النظر إلى المعنى، أو في درجة بروزه وقوته داخل الخطاب. ومن ثم فإن العدول التركيبي يكشف عن هذه الجدلية بوضوح، إذ يظهر فيه كيف يتحول الشكل إلى أداة لتوجيه المعنى، وكيف يفرض المعنى بدوره اختيار شكل تركيبي دون غيره.

كما أن الدراسات اللسانية الحديثة تدعم هذا التكامل، إذ ترى أن البنية النحوية تمثل الإطار التنظيمي الذي تُبنى فيه الدلالة، وأن أي تحول في هذا الإطار ينعكس على طبيعة المعنى ووظيفته التداولية (Halliday, 1994, p. 92). وبذلك تتضح العلاقة التلازمية بين الشكل والمعنى، حيث لا يمكن فهم أحدهما فهماً دقيقاً دون استحضار الآخر.

ثانياً: العدول بوصفه استراتيجية لغوية

يمكن النظر إلى العدول التركيبي بوصفه استراتيجية لغوية واعية يلجأ إليها المتكلم لتحقيق مقاصد دلالية وتداولية محددة، من خلال اختيار بنية تركيبية معدولة بدل البنية المعيارية المتوقعة. فالمتكلم لا يغيّر ترتيب عناصر الجملة أو يحذف بعضها أو يوسّعها عبثاً، بل يفعل ذلك استجابة لغايات تتصل بإبراز المعنى أو تخصيصه أو توكيده أو توجيهه تأويله.

وقد بين البلاغيون أن اختلاف النظم ليس غاية في ذاته، بل وسيلة لتحقيق أغراض معنوية وبلاغية تتحدد في ضوء المقام والسياق، وهو ما يدل على أن العدول التركيبي يمثل اختياراً استراتيجياً في بناء الخطاب (الجرجاني، 1992، ص 165). فالقديم، والحذف، والتحويل بين الجمل الاسمية والفعلية، كلها أدوات تركيبية تُسخر لخدمة المعنى المراد إبرازه.

كما يمكن تفسير هذه الاستراتيجيات في ضوء النظريات التداولية الحديثة التي ترى أن المتكلم يختار من بين الإمكانيات اللغوية ما يحقق أقصى قدر من الفاعلية التواصلية، وأن البنية اللغوية تُوظف لتحقيق مقاصد معينة تتعلق بالإقناع أو التأثير أو التوجيه. (Leech, 1983, p. 13) ومن ثم فإن العدول التركيبي يُعدّ اختياراً وظيفياً يهدف إلى تحقيق كفاءة دلالية أعلى داخل الخطاب.

وبناءً على ذلك، يتبين أن التكامل بين النحو والدلالة يتجلى بوضوح في ظاهرة العدول التركيبي، إذ تكشف هذه الظاهرة عن جدلية مستمرة بين الشكل والمعنى، حيث يؤثر كل منهما في الآخر تأثيراً متبادلاً. كما يتضح أن العدول يمثل استراتيجية لغوية واعية تُستثمر فيها الإمكانيات النحوية لتحقيق مقاصد دلالية وتداولية دقيقة، مما يؤكد أن دراسة العدول التركيبي لا تكتمل إلا في إطار مقارنة تجمع بين التحليل النحوي والتحليل الدلالي في آن واحد.

المبحث الخامس: نماذج تطبيقية تحليلية

يُعدّ الجانب التطبيقي من أهم متطلبات البحوث المحكمة في الدراسات اللغوية، لأنه يمثل المجال الذي تُختبر فيه المفاهيم النظرية وتُقاس فاعليتها في تحليل النصوص الحقيقية. ومن ثم يهدف هذا المبحث إلى تقديم نماذج تطبيقية مختارة من النص القرآني، والشعر العربي، والنثر العربي، للكشف عن مظاهر العدول التركيبي وتحليل أثرها النحوي والدلالي والبلاغي وفق خطوات منهجية دقيقة.

أولاً: نصوص قرآنية مختارة

النموذج الأول: قوله تعالى

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاطحة: 5)

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل التركيبي للجملة: "نعبدُكَ"، حيث يتقدّم الفعل ثم المفعول به.

2. موضع العدول التركيبي: تقديم المفعول به «إِيَّاكَ» على الفعل «نعبد.»

3. التفسير النحوي: يجوز في العربية تقديم المفعول به للاهتمام به أو لتخصيصه، مع بقاء العامل (الفعل) مؤثراً فيه نحويًا، وهو ما يندرج ضمن باب التقديم والتأخير (سيبويه، 1988، ج1، ص 40).

4. التحليل الدلالي: أفاد التقديم معنى الحصر والتخصيص، أي: لا نعبد إلا إياك، فانتقل المفعول به إلى بؤرة التركيز الدلالي.

5. القيمة البلاغية: حقق العدول توكيد التوحيد وإفراد العبادة لله تعالى، فجاء الأسلوب أبلغ في تقرير العقيدة من التركيب الأصله.

النموذج الثاني: قوله تعالى

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ (المائدة: 23)

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل: "فتوكلوا على الله."

2. موضع العدول التركيبي: تقديم الجار والمجرور «على الله» على الفعل.

3. التفسير النحوي: تقديم المتعلق جائز إذا دلّ السياق على العناية به، مع بقاء تعلّقه بالفعل (ابن هشام، 1985، ج1، ص 85).

4. التحليل الدلالي: دلّ التقديم على اختصاص التوكّل بالله دون غيره، أي القصر الدلالي.

5. القيمة البلاغية: أبرز العدول معنى الاعتماد الكامل على الله، وهو معنى لا يتحقق بالقوة نفسها في الرتبة الأصلية.

ثانيًا: شواهد شعرية

النموذج الأول: قول المتنبي

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل: «تأتي العزائم على قدر أهل العزم».

2. موضع العدول التركيبي: تقديم الجار والمجرور «على قدر أهل العزم».

3. التفسير النحوي: التقديم هنا من باب تقديم شبه الجملة للاهتمام، وهو أسلوب مطّرد في العربية.

4. التحليل الدلالي: أبرز الشاعر معيار العزم بوصفه أساس العزائم، فجعل التركيز على السبب لا على النتيجة.

5. القيمة البلاغية: حقق العدول قوة إيقاعية ودلالية، إذ مهّد للنتيجة بذكر معيارها أولاً، مما يعكس رؤية فلسفية في العلاقة بين العزم والعزائم.

النموذج الثاني: قول امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل: «قف نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل».

2. موضع العدول التركيبي: العدول إلى صيغة التثنية في فعل الأمر «قفا».

3. التفسير النحوي: استعمال التثنية قد يكون على سبيل الالتفات أو استحضار المخاطب، وهو أسلوب عربي فصيح (ابن يعيش، 2001، ج4، ص 92).

4. التحليل الدلالي: أشرك الشاعر المخاطب في التجربة الشعورية، فوسّع الدلالة من ذاتية فردية إلى تجربة وجدانية مشتركة.

5. القيمة البلاغية: أضفى العدول بعدًا عاطفيًا وجماعيًا على الخطاب، مما زاد من تأثيره الوجداني.

ثالثًا: نصوص نثرية عربية

النموذج الأول: من نهج البلاغة

«في الله أخوك»

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل: «أخوك في الله».

2. موضع العدول التركيبي: تقديم الجار والمجرور «في الله».

3. التفسير النحوي: يجوز تقديم الجار والمجرور للاختصاص والعناية، مع بقاء الخبر متعلقًا بالمبتدأ.

4. التحليل الدلالي: أفاد التقديم تخصيص الأخوة بأنها قائمة على أساس ديني لا دنيوي.

5. القيمة البلاغية: جعل العدول معنى الإخلاص في الأخوة بارزًا قبل ذكر المخاطب، مما يمنح العبارة عمقًا قيمياً.

النموذج الثاني: من كلام الجاحظ

«العلم منزلة عظيمة»

1. تحديد البنية الأصلية: الأصل: «منزلة عظيمة للعلم.»
2. موضع العدول التركيبي: تقديم الجار والمجرور «للعلم.»
3. التفسير النحوي: التقديم هنا لإفادة الاختصاص والاهتمام بالعلم.
4. التحليل الدلالي: جعل التركيز الدلالي على العلم ذاته بوصفه مصدر المنزلة.
5. القيمة البلاغية: أسهم العدول في تعظيم شأن العلم بإبرازه في صدر الجملة.

خلاصة المبحث التطبيقي

تكشف النماذج التطبيقية من النصوص القرآنية والشعرية والنثرية أن العدول التركيبي ظاهرة راسخة في العربية، تقوم على إعادة تنظيم البنية التركيبية لتحقيق مقاصد دلالية وبلاغية دقيقة. وقد ظهر من خلال التحليل أن هذا العدول يخضع لقواعد نحوية منضبطة، لكنه يتجاوزها إلى وظائف دلالية عميقة تتصل بالحرص، والتخصيص، والتوكيد، وإبراز بؤرة المعنى داخل الخطاب. كما يتبين أن القيمة البلاغية للعدول تنبع من قدرته على شدّ انتباه المتلقي وتوجيه تأويله نحو المعنى المقصود، مما يجعله استراتيجية لغوية فاعلة في بناء الخطاب العربي بمختلف أنماطه.

الخاتمة

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن ظاهرة العدول التركيبي في العربية بوصفها آلية لغوية فاعلة في بناء المعنى، من خلال مقارنة نحوية دلالية تجمع بين تحليل البنية التركيبية واستجلاء أثرها الدلالي والتداولي في النصوص العربية القرآنية والشعرية والنثرية. وقد أظهرت الدراسة أن العدول التركيبي ليس مجرد خروج شكلي عن الرتبة الأصلية أو البنية المعيارية، بل هو استراتيجية لغوية واعية تُستثمر فيها إمكانات النظام النحوي لتوجيه المعنى وإبراز دلالاته الدقيقة وفق مقتضيات السياق والمقام.

أولاً: أبرز النتائج العلمية

1. تبين أن العدول التركيبي يمثل ظاهرة لغوية أصيلة في العربية، تقوم على إعادة ترتيب عناصر الجملة أو التحول في بنيتها لتحقيق مقاصد دلالية وبلاغية مخصوصة.
2. كشفت الدراسة أن العلاقة بين التركيب والمعنى علاقة تكاملية، إذ يتشكل المعنى من خلال العلاقات النحوية بين عناصر الجملة، لا من المفردات منفردة.
3. ثبت أن التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتحويل بين الجملة الاسمية والفعلية، تمثل أبرز أنماط العدول التركيبي التي تسهم في توجيه الدلالة داخل الخطاب.
4. أظهرت النماذج التطبيقية أن العدول التركيبي يؤدي وظائف دلالية متعددة، مثل الحصر، والتخصيص، والتوكيد، وإبراز بؤرة المعنى.
5. كشفت الدراسة أن العدول التركيبي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسياق المقام، إذ يتحدد أثره الدلالي في ضوء القرائن السياقية والتداولية.
6. أكدت المقارنة النحوية الدلالية أن العدول لا يُعدّ خروجاً عن القاعدة النحوية، بل هو توظيف مشروع لإمكانات النظام اللغوي بما يحقق كفاءة تعبيرية أعلى.

ثانياً: الاستنتاجات اللغوية

1. يمكن القول إن العدول التركيبي يمثل مظهرًا من مظاهر مرونة النظام النحوي العربي وقدرته على استيعاب التحولات الأسلوبية دون الإخلال بقواعده العامة.
 2. يتضح أن البنية التركيبية في العربية بنية ديناميكية تتفاعل مع المقاصد الدلالية للمتكلم، مما يجعل النحو أداة وظيفية في خدمة المعنى لا نظامًا شكليًا جامدًا.
 3. يُستنتج أن العدول التركيبي يسهم في تكثيف الدلالة اللغوية عبر إعادة توزيع عناصر الجملة، بحيث يصبح العنصر المقدم أو المحذوف أو الموسع محورًا للتركيز الدلالي.
 4. تبيّن أن النص القرآني والشعر العربي قد استثمرا العدول التركيبي بوصفه وسيلة بلاغية لإنتاج معانٍ عميقة ومتعددة المستويات.
 5. تؤكد الدراسة أن فهم العدول التركيبي يقتضي الجمع بين التحليل النحوي والتحليل الدلالي والتداولي، لأن الظاهرة تتجاوز حدود أحد هذه المستويات منفردًا.
- ثالثاً: التوصيات البحثية
1. توصي الدراسة بضرورة توسيع نطاق الدراسات النحوية لتشمل البعد الدلالي والتداولي للظواهر التركيبية، وعدم الاقتصار على الوصف الشكلي للبنى النحوية.
 2. تشجّع على إجراء دراسات تطبيقية موسعة على النصوص العربية المختلفة للكشف عن وظائف العدول التركيبي في الخطاب الديني والأدبي والإعلامي.
 3. توصي بدمج مفاهيم العدول التركيبي في مناهج تعليم اللغة العربية، لما لها من دور في تنمية الوعي بأساليب التعبير ودقة توجيه المعنى.
 4. تدعو إلى الإفادة من النظريات اللسانية الحديثة في تحليل الظواهر النحوية العربية، بما يسهم في تقديم قراءات معاصرة متكاملة للنصوص العربية.
- رابعاً: آفاق الدراسات المستقبلية
1. دراسة العدول التركيبي في ضوء التحليل التداولي المعاصر، للكشف عن دوره في بناء المعنى في الخطاب الحوارية والإعلامي.
 2. إجراء مقارنة بين العدول التركيبي في العربية واللغات الأخرى، لبيان الخصائص المشتركة والفروق الدلالية بين النظم اللغوية.
 3. استكشاف أثر العدول التركيبي في الترجمة العربية، ومدى انعكاسه على نقل المعنى بين اللغات.
 4. توسيع البحث ليشمل العدول في المستويات الصوتية والصرفية وعلاقتها بالبنية التركيبية والدلالة.
 5. توجيه الدراسات المستقبلية نحو بناء نماذج تحليلية تجمع بين النحو الوظيفي والدلالة التداولية في تفسير الظواهر الأسلوبية في العربية.
- وبذلك يمكن التأكيد أن العدول التركيبي يمثل ظاهرة مركزية في النظام اللغوي العربي، تكشف عن التفاعل العميق بين البنية النحوية والدلالة، وتبرز قدرة العربية على توظيف إمكاناتها التركيبية لإنتاج خطاب غني بالمعاني والدلالات المتعددة، وهو ما يمنح هذه الظاهرة مكانة علمية بارزة في الدراسات اللغوية الحديثة.

قائمة النتائج المتوقعة

1. يُتوقع أن تُثبت الدراسة أن العدول التركيبي يمثل آلية مركزية في توليد المعنى داخل الجملة العربية، إذ يسهم تغيير البنية التركيبية في إعادة توجيه الدلالة وإبراز بؤرها التداولية والبلاغية.
2. يُنتظر أن تؤكد نتائج البحث أن العلاقة بين النحو والدلالة علاقة تكاملية تفاعلية، حيث يشكّل التركيب الإطار البنوي الذي تتولد في داخله المعاني، ولا يمكن فهم أحد المستويين دون الآخر.
3. يُتوقع أن تبرهن الدراسة أن العدول التركيبي لا يُعدّ خروجًا عن القاعدة النحوية أو مخالفة للنظام اللغوي، بل هو توظيف مقصود للإمكانات التي يتيحها النحو لتحقيق غايات دلالية وبلاغية محددة.
4. يُرجّح أن تكشف النتائج أن العدول التركيبي يسهم في تحقيق الاقتصاد اللغوي من خلال الحذف والاختصار وإعادة توزيع عناصر الجملة، مما يؤدي إلى تكثيف المعنى وإثراء إمكانات التأويل داخل النص العربي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر التراثية

1. ابن جني، أبو الفتح عثمان، 1999. *الخصائص*. تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: دار الهدى.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم، 1994. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
3. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، 1985. *مغني اللبيب عن كتب الأعراب*. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: دار الفكر.
4. ابن يعيش، موفق الدين، 2001. *شرح المفصل*. تحقيق: إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلمية.
5. الجرجاني، عبد القاهر، 1992. *أسرار البلاغة*. تحقيق: محمود شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.
6. الجرجاني، عبد القاهر، 1992. *دلائل الإعجاز*. تحقيق: محمود شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.
9. حسان، تمام، 2006. *اللغة العربية معناها ومبناها*. القاهرة: عالم الكتب.
7. الزمخشري، جار الله محمود، 2009. *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. بيروت: دار المعرفة.
8. سيوييه، عمرو بن عثمان، 1988. *الكتاب*. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.
10. عبد المطلب، محمد، 1998. *البلاغة العربية قراءة أخرى*. القاهرة: مكتبة لبنان ناشرون.
11. المسدي، عبد السلام، 1994. *الأسلوبية والأسلوب*. تونس: الدار العربية للكتاب.
12. مفتاح، محمد، 1985. *تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناسل*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

13. Chomsky, N. (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, MA: MIT Press.
14. Halliday, M. A. K. (1994). *An Introduction to Functional Grammar*. London: Edward Arnold.
15. Leech, G. (1969). *A Linguistic Guide to English Poetry*. London: Longman.
16. Leech, G. (1983). *Principles of Pragmatics*. London: Longman.